ملاحظات حول ترجمة القرآن باعتباره نصًا أدبيًا

أ.د. محمد محمد عناني*

١- أنماط النصوص

أحدث النظريات العلمية هى نظرية أنماط النصوص وهى التي تقسم النصوص وفقًا للغرض منها skopostheasie وفقًا لصفات تركيبية أو بنائية أو صياغية فيها ، فهذه تتفاوت من لغة إلى لغة وفقًا لطبيعة كل لغة ، وأما الغرض informative فهو السمة التي تشترك فيها كل اللغات تقريبًا ! وهذه الأنماط الثلاثة هى :النمط الإخبارى أى الذي يهدف إلى إبلاغ خبر أى بيان بشأن ما صدق أم كذب ، وهو أقرب إلى ما نعرفه بالعربية بالأسلوب الخبري ، وإن كان النمط الإخباري قد يتوسل بأساليب إنشائية أى لا تقبل التكذيب أو التصديق ، فقد أفضل أن أخبر عن كذب شخص باستعمال أسلوب إنشائي وهو أسلوب السؤال: هل صدقني ؟ أو أسلوب التعجب : ما أكذبه! أو الدعاء : ليته يصدق ! إذن فالغرض هو الذي يحدد نمط النص ومن المحال تحديد الغرض دون معرفة السياق أو ما يسمى بسياق الموقف (context situation) وهو ما يستلزم تجاوز الظواهر اللغوية الباطنة إلى الظواهر المحيطة بالفعل اللغوي .

– والنوع الثاني من النصوص هو النص التعبيري ، أي الذي لا يهدف إلى إيصال شيء إلى السامع ؟

– أن يضع في الألفاظ ما تستطيع اللغة أن تنقله من مشاعر ، حتى ولو لم يفهمها السامع ، وإن كان عادةً ما يفهمها ، وقد يتخذ أسلوبا خبريًا أو إنشائيًا أو أي أسلوب يريده المتكلم ، وهو عادةً ما يتضمن قيمة جمالية ، من طريق الحيل اللغوية المعروفة في علم البلاغة التقليدي الذي برع فيه العرب مثلما برع فيه اليونان والرومان ، ولقد أحصى صفى الدين الحلي ١٥٤ حيلة بلاغية في قصيدة تعليمية طريفة ، والغربيون ورثوا عن الكلاسيكيين ستا وثلاثين حيلة ! وهذه

---

* أستاذ الأدب الإنجليزي والترجمة بكلية الآداب – جامعة القاهرة نشر العديد من الدراسات في اللغة والنقد باللغة العربية ونشر عدداً من المؤلفات باللغة الإنجليزية في مجال اللغة والنقد .

حيل ترمى إلى إحداث تأثير جمالي في السامع ، سواء أكانت مفهومة أم غير مفهومة ! ويدخل في هذا الإطار الإيحاء والرمز وظلال المعاني وتضاربها بالمفارقة وسواها ، ولذلك فإذا كان الغرض تعبيريًا فإن النتيجة ترمى

عادةً إلى إحداث تأثير جمالي معين .. فنحن حين نسمع المتنبي ، مهما يكن اتفاقنا أو اختلافنا مع ما يقول وجدنا أنفسنا نقول الله الله !

والنمط الثالث من النصوص هو النص الداعي إلى العمل (appellative) بمعنى النص الذي يرمى صاحبه إلى حث السامع أو القارىء على فعل شيء ما ، وهذا أيضًا لا علاقة له بالشكل اللغوي للتعبير ، أي ليس من الضروري أن يكون الفعل المستعمل في النص في صيغة الأمر ، أو الطلب أو الرجاء ! بل قد يتخذ صورة الخبر المباشر (statement) حتى وهو يرمى إلى هذه الدعوة ، فمن يقول لك في الصحيفة «هذا المشروب مفيد للصحة» أو أكثر فائدة من غيره ، لا يقصد إبلاغك بشيء (أي بخبر) بل يريد دعوتك إلى الإقبال على ذلك المشروب ، ونحن نألف الإعلان التليفزيوني المماثلة «أفضل صابون للملابس !» وهكذا ! وهنا يتوقف تحديد الغرض على الإحاطة بسياق الموقف الذي يقع فيه النص .

وقد أضاف بعض المحدثين نوعًا رابعًا من النصوص هو النص الرامي إلى إقامة الصلة الكلامية مع المخاطب وحسب ، دون أن تكون للكلمات المقالة معناها المعجمي ، فقد يلجأ المتحدث أثناء حديثه إلى بعض الحيل الكلامية التي قد ترمى إلى لفت انتباه السامع ، أو الإبقاء على اهتمامه وإصغائه ، مثلما يلجأ البائع أثناء المساومة على السعر إلى ترديد عبارة «صلى على النبي!» «وكمان زيد النبي صلا» إلى آخره ، دون أن يكون المقصد هو الصلاة على النبي في ذاتها ، وإنما هي صلة للإبقاء على الشاري حتى لا ينفض عنه بسبب غلاء السعر أو لأسباب أخرى ! ونحن نعرف ذلك أيضا من دراسة سياق الموقف ، وخصوصًا في الدراما الواقعية ، وفى الحياة اليومية .

٢ـ غرض أنماط النصوص

ولكل نمط من هذه النصوص مذهبه الذي يحقق الغرض منه . فالنمط الأول يقتضى ما يسمى بالترجمة الوثائقية أي الترجمة الدقيقة التي ترمى إلى إيصال المعنى كاملاً على نحو ما أراده صاحب النص وكما يعبر عنه ظاهر اللفظ بالمعاني المعجمية والإحالة جميعًا ، وهذا النوع يسمى أيضا بالترجمة التوصيلية ، أي النوع الذي يضع المترجم فيه المعنى نصب عينه ولا يحيد عنه ، بغض النظر عن أسلوب نقله إلى السامع أو القارىء ، أى إن الوسيلة تصبح ثانوية ، وعادة ما يقتضى ذلك تغيير الأبنية اللفظية والتركيبية في النقل من لغة إلى لغة ، فقد تصبح الصفة اسمًا كما نقول «مصارعة المحترفين» ترجمة للتعبير الإنجليزي (professional

wresting) بدلاً من المصارعة المحترفة ، وكما نقول "المحافظة على نظافة المكان" ترجمة (Keeping the place clean) وقد يصبح الاسم صفة والفعل اسمًا إلى آخر ذلك ، وقد يتغير بناء العبارة بالتقديم وبالتأخير ، وبتغيير العبارة الاسمية الثانوية إلى عبارة فعلية رئيسية إلى آخر ذلك من الحيل التي يكتسبها المترجم عند المضاهاة في عمله بين اللغتين ، وقد يهتدى إليها بالحدس ، وقد يتطلب من يرشده إليها في بداية عمله ، فالمهم هو نقل المعنى كاملاً وبدقة وحسب .

وأما النمط الثاني (أي التعبيري) (ويقابله أحيانًا مصطلح الترجمة الدلالية) فيتطلب من المترجم إبراز النواحي الجمالية التي يتميز بها النص المصدر أي النص الأصلي ، بالسعي إلى إيجاد المقابل القادر على نقلها إلى السامع أو القارىء في اللغة المستهدفة أي في النص المستهدف ، وكلمة المقابل هي كلمة السر في الموضوع الذي أتحدث فيه اليوم ، فالمقابل قد يكون المثيل أحيانا إذا تصادف اتفاق اللغتين في الحيلة البلاغية المستحدثة ، وهذا كثير الحدوث فالمجاز المرسل (synecdoche) مثلاً شائع في كل لغات الأرض ، إذ كثيرًا ما نستخدم البعض لنشير إلى الكل ، والعكس ، وقد تختلف الحيلة البلاغية من لغة إلى أخرى ، كأن يكون السجع معتمدًا على آخر حروف الكلمة ، وقد يعتمد على أوائل حروفها ، في العربية والإنجليزية على الترتيب ، وقد يعتمد الجمال البلاغي في الصورة الشعرية على الضغط والتكثيف في لغة ما ، ويعتمد على البسط والعرض المتئد في لغة أخرى ، كما نرى في بعض النصوص الأدبية العربية والإنجليزية على الترتيب ، وهكذا ، فقد يكون المقابل التعبيري مماثلاً فإن تعذر ذلك جيء بالنظير أي بالصيغة البلاغية المناظرة في اللغة المستهدفة ، والتي يرى المترجم أنها قادرة على إحداث التأثير المطلوب. وهذا يتوقف بطبيعة الحال على الخبرة الأدبية للمترجم ، ولذلك فكثيرًا ما نرى أن خير مترجمي الأدب من بين أدباء اللغة ينقلون إليها، وقد تتعدد صور النصوص الأدبية التي يخرجونها بتعدد مذاهبهم الفنية في التعبير ، وهى المذاهب التي تتكلم في تفسيرهم للظاهرة الجمالية في النص المصور ، وفى طرائق إخراجهم لهذه المظاهر في إنتاجهم الأدبي نفسه، ولا يعنى ذلك أن مترجم الأدب لابد أن يكون أديبًا ، ولكنه لابد أن يتمتع بحسٍ لغوى وأدبي مرهف يتيح له النقل الصادق ، وكلما ازداد ذلك الحس الادبي ازداد اقترابه من النص المترجم ، وصدق نقله ، وأما إن كان أديبًا مرموقًا يتميز بأسلوب أصبح علمًا عليه فسوف نجد أن النص المترجم سوف يتضح بهذا الأسلوب ، وربما لا يتوافر فيه من الصدق للأصل ما قد يتوافر لمن هو لم يرتبط بأسلوب خاص في الكتابة ، أي بمن هو على استعداد لأن يتمثل النص الأصلي إلى أقصى حد ويحاول إخراجه كما تصوره له حاسته الفنية ولو تطلب ذلك الابتعاد عن أسلوب تأليفه الخاص.

وأما النمط الثالث (أي الداعي للعمل) فلا يقتضى إلا إعادة تشكيل سياق الموقف لا الذي تقع فيه الدعوة إلى العمل ، والانصياع الكامل لهذا الموقف بما قد يقتضى إعادة الصياغة برمتها تحقيقًا للغاية، فالمترجم هنا يخاطب جمهورًا مختلفًا ، سواء أكان ذلك جمهور ما معين أو جمهور قراء ، ولهذا أهميته البالغة حين يكون المترجم غير واثق من طبيعة الجمهور الذي يخاطبه ، خصوصًا حين يترجم مثل هذه النصوص الداعية إلى العمل، ولنسمى الداعية فقط من باب الاختصار ، في النصوص المقدسة أو شبه المقدسة ، فأمثال هذه النصوص تخاطب البشرية جمعاء، أي "الناس كافة" ، على اختلاف ألوانهم وألسنتهم ، والمترجم هنا لابد أن ينزع إلى ما هو عام وأولى (primes & universals) في الصياغة الداعية ، بحيث تتلاشى الحدود الثقافية ، وتخرج الرسالة صافية غير مثقلة بالسمات الثقافية التي يتميز بها النص المصدر .

وأما النوع الرابع فلا يهمنا في هذا المجال لأنه يكاد يقتصر على الدراما والحياة اليومية وهو ما نصادفه في ترجمة المسرح ، وفى ترجمة الخطابات السياسية التي تلقى بالعامية بأي لغة ، وهذه أغراض لا تتحقق إلا بالمراعاة الدقيقة للموقف ولثقافة المتحدث والمخاطب جميعًا ! وكثيرًا ما يستعيض المترجم عن كلمات النص المصدر بكلمات أبعد ما تكون عنه تحقيقًا للغاية المنشودة .

٣-علاقة نظرية أنماط النصوص بترجمة معاني القرآن الكريم

فإذا حاولنا تطبيق هذه النظرية العلمية الدقيقة على القرآن الكريم واجهتنا الصعوبة فى تحديد نمط النص الذي ينتمي إليه كتاب الله العزيز ، فهو يتضمن جوانب إخبارية ، بعضها من «أنباء الغيب» التي يوحى المولى بها إلى نبيه الكريم ، وبعضها من حقائق الدنيا التي يريد المولى جل وعلا أن يلفت أنظار الناس إليها حتى يقنعهم بالحقيقة ، وبعضها حقائق عن الإنسان نفسه ، عن خلقه ومماته وبعثه . وهو يتضمن جوانب تعبيرية جمالية لا شكل فيها ، إما في أثناء رواية قصص الأنبياء وذويهم وكيف عبروا عن مشاعرهم ، وكيف عبر من حولهم عن مشاعرهم أيضا وأفكارهم ، وفيه ألوان القَسَم الذي يتضمن إيحاءات بلغت النظر إلى بديع خلق السماوات والأرض، وفيه الحوارات الدائرة بين المؤمنين والكفار ، أو في نطاق أسر الأنبياء أنفسهم ، وبين المولى تعالى ورسوله الكريم، وهى جميعًا تتفوق في الصياغة البلاغية العربية على ما درج عليه أهل البلاغة في زمان الرسالة ، فالعرب أصحاب فصاحة وبلاغة ، وإذن فإن القرآن في النص العربي يعتمد على ما تتفوق فيه اللغة العربية من وسائل البلاغة فيصعد بها إلى ذرا جديدة ، وفى نص القرآن العظيم أيضا ندعو إلى العمل ، بعضها خاص بالإيمان والتوحيد ، وبعضها خاص بأخلاق الإسلام ، وبعضها خاص بتنظيم العمل في المجتمع

الصالح ، وقد تكون أحكاما عامة أو أحكاما خاصة ، ولكنها في كل الأحوال أوامر ونواهٍ لاشك فيها وتنتمي إلى النمط الثالث من النصوص .

والقرآن إذن نصٌ مركب ، من المحال أن نعتبره نصًا أدبيا فنحاول إيجاد المماثل أو النظير إذا استعصى المماثل في سعينا لتقديم المقابل ، ولكن به جماليات لاشك فيها ، وبدائع ساحرةً ترهق المترجم الذي ينشد الترجمة الدلالية ، أي يحاول مثلاً إخراج جماليات توازى العبارات المسجوعة أو شبه المسجوعة ، فبعض المترجمين يحاولون ذلك فيخرجون ما يقترب من الشعر أو بتعبير أدق من النظم في الانجليزية ، مثل آربرى ، وبعضهم يتجاهلها تمامًا ، فهذان هما طرفا النقيض ، وأما فيما بينهما فيوجد من يحاكى العبارات الأصلية ، دون أن ينجح لا في إخراج السجع ولا في محاكاة التأثير الساحر لإيقاع العربية القرآنية الغلاّب ! وهنا تبرز مشكلات تتطلب دراساتٍ مُعمَّقةً تدعو الدارسين الجادين إلى بذل الجهد ، ولن أفيض في تفصيلها فالمقام لا يتسع للتفصيل ، بل سوف ألمح إليها إلماحًا. وقد أعانني المولى على توجيه بعض الدارسين النابهين إلى معالجة بعضها ، فقام الدكتور سعيد العليمى بكتابة رسالته للماجستير عن مشكلات ترجمة معاني القرآن ، وكان دليلي في هذا السبيل أستاذي الكريم شكرى عياد رحمه الله ، وقام غيره بتناول مشكلات بعينها بالبحث والدرس مثل الدكتور خالد توفيق الذي أعد دراسته للماجستير عن اختلاف معاني بعض الكلمات القرآنية من سياق إلى سياق ، ورسالته للدكتوراه عن ترجمة لغة المجاز في القرآن، وقام الأستاذ محمد فوزى بدراسة معمقة عن ترجمة التكرار فى القرآن ، باعتباره ظاهرة لغوية وأدبية معًا ، في السور المكية تحديدًا ، ولكن المجال لا يزال مفتوحًا بل أكاد أقول إن الباب قد فُتح لتوه لإجراء الدراسات الجادة في هذا السبيل ، لا في ترجمة الظاهرة الأدبية فى القرآن فحسب بل في ترجمة شتى أنماط نصوصه . ومن مشكلات ترجمة الظاهرة الأدبية ما سوف أعرضه حتى تشاركوني جميعًا في التفكير فيه :

أولاً: الظاهرة الأدبية ترتبط من ناحية بالثقافة ، ومن ناحية أخرى بالقيم الجمالية التي لا علاقة لها بالثقافة ، بل هى أولية وعالمية وتشترك فيها لغات الأرض جميعًا ، كما تشترك فيها سائر فنون الجنس البشرى . فكيف نُخرج تلك القيم الجمالية من سياقها الثقافي ، أي كيف نجردها من ارتباطها بالبيئة العربية وهى نابعة منها ؟ في ظني أننا لسنا بحاجة إلى هذا التجريد لأن الظواهر الجمالية لا تفقد بهاءها وقدرتها على التأثير حين ترتبط ببيئة ثقافية معينة، ونقاد الغرب يتذوقون صور الصحراء والتراب والماء والنار والهواء مثلما نتذوقها ، والعبرة هنا ليس بالتغريب نشدانًا للجاذبية ، كما فعل (Bell) في ترجمته للقرآن ، بل بالإخلاص للصور الجمالية الأصلية حتى تصبح صادقة الدلالة في النص المترجم، ونحن نرى

كيف تأثر الشعراء الرومانسيون والإنجليز بهذه الصور في شعرهم ، وأقرب دليل على ذلك ما يسمى بحلم الشاعر الذي يرويه ورد زورث في سيرته الذاتية الشعرية ، حيث يروى أنه أغمض ذات يوم على شاطئ البحر فرأى في منامه عربيًا يركب جملاً وبيده كتاب وقوقعة ، وبأنه جاء بنذير طوفان يفرق الأرض مثل طوفان نوح عليه السلام ، وقد تناوله الشاعر العظيم و.هـ. أودن في كتابه عن صور البحر في الشعر فأفاض في شرحه والتعليق عليه ، ولدينا أمثلة أخرى لا تعد ولا تحصى منذ شكسبير وحتى اليوم.

ثانيًا : الظاهرة الأدبية في الكتب المقدسة ذات بعد تاريخي ، أو قل ذات أبعاد تاريخية . فكيف نخرج القيم الجمالية من أبعادها التاريخية ، للتأكيد على ما يسمى بلازمنية timelessness النص المقدس ؟ أى تجاوزه للحدود التاريخية التي تربطه بزمان معين ؟ وهنا تأتى الإجابة من جانب أستاذة الأديان المقارنة بجامعة أكسفورد كارين آرمسترونج التي تقول بأن الروايات التاريخية والروابط التاريخية في الكتب المقدسة أمثال (parables) وهى بهذا تتفق مع علماء المسلمين الذين يقولون إن ما يربط تلك الروايات والأحداث التاريخية باللازمن هو الدلالة الكامنة ، ومن ثم فنحن نترجمها باعتبارها من الأمثال التي يضربها الله للناس ، وكتُب أسباب النزول حافلة بالأدلة على أن الأحداث التي يرويها القرآن ذات محورين ، المحور الأول هو سياقها التاريخي ، والمحور الثاني (وهو الأهم) هو السياق الإنساني الذي يجعلها ذات دلالة عامة ودائمة . ولذلك فنحن لا نحتاج إلى التحرر من البعد التاريخي ما دمنا في الترجمة فهى على الدوام أهمية الدلالة وضرورة إبرازها .

ثالثًا : مشكلة المشاكل هى الصياغة اللغوية . وهنا نجد أننا ما دمنا مقيدين بترجمة المعنى وملزمين بإبرازه ، فلا بأس ترجيح الجانب التوصيلي على الجانب الجمالي المحض إذا تنازعا ! فالقرآن بلاغ للناس ، وهو بيان ، وهو إنذار وتحذير . إلى جانب كل ما يتحلى به من أنماط النصوص التي وضعها علماء اليوم ، فإذا ذكرنا هذا دائمًا فسوف يتضح لنا السبيل ، أى أن مهمة مترجم معاني القرآن هو أن يترجم معانيه ، وهذه البديهية تغيب كثيرًا عن أذهان بعض المترجمين الذين يقعون تحت سحر الصياغة الجمالية فيضحون في سبيلها ببعض المعنى! أى إنه إذا تنازع الشكل والمضمون غلّبنا المضمون، فالرسالة المقدسة تقتضى الصدق في النقل قبل الصدق في نقل الزخرف اللفظي ، فما الزخرف إلا وسيلة ، ويجب ألا تلهينا عن الغاية ، وأما إذا لم يقع التنازع ورأى المترجم أنه ملهم وقادر على الإتيان فسوف يفتح الطريق أمام آخر يأتي بمقابل آخر ، فتتعدد الصور الصياغية للمعنى الواحد ! وهذه من القضايا الجديدة بالبحث على مستوى جماليات المقارنة، وتقتضى بحثًا قد لا يستطيعه طالب الدكتوراه.فنحن نقبل هذا ولاشك في ترجمات الأدب العالمي ، وأود أن أشير إلى ترجمة شكسبير مثلاً ، فقد

صدرت لأهم أعماله ترجمات كثيرة بلغات كثيرة . وصدر كتاب بالإنجليزية يقارن بين ست ترجمات بالفرنسية لمسرحية هاملت ، ويبين أن لكل ترجمة منها منهاجًا يكاد يجعل منها عملاً فنيًا مختلفًا عن سواه وعن الأصل ! وكذلك صدرت بالعربية ترجمات كثيرة لها، ومن يقارن هذه الترجمات بعضها بالبعض قد ينتهي إلى النتيجة نفسها ، ولهذا فرضت في ترجمتي المنظومة على تحرّى الدقة المتناهية . وكنت أحيانًا ما أضحى بما يعتبر من الجماليات خوفًا من أن ارُمى بمثل ذلك الاتهام !

رابعًا : وأختتم ملاحظاتي السريعة هذه بتقديم الحل الذي أراه مناسبًا لما أسميته بمشكلة المشاكل ! إننا نقول إننا نترجم معاني القرآن . ومعاني القرآن في الغالب الأعم لا خلاف عليها ، ولكنّ هناك معاني اختلف المفسرون فيها ، وأنا أقصد هنا التمييز بين المحكم والمتشابه ، فحلّ ذلك يأتي بتوفير بعض الهوامش الشارحة والتي لا غنى عنها في ترجمة النصوص المقدسة ، ولكنني أقصد اختلافات التفسير التي نطالعها في كتب الأئمة ، وإن لم تكن كثيرة ، وأنا أقول إن على المترجم (الذي يضحى بالجماليات في سبيل المعنى ويأخذ بسبيل الترجمة الوثائقية أو التوصيلية) أن يستعين بمتخصص في علوم القرآن حتى يهديه إلى الأرجح ، وما دام قد قبل التضحية بجماليات اللغة العربية في سبيل إبلاغ رسالة المولى جل وعلا إلى الناس ، فلا بأس عليه من اختيار التعبير المباشر الذي لا يدع مجالاً للتأويل ، وأن يذكر منهجه صراحة في صدر ترجمته لمعاني القرآن كما فعل العبقري محمد محمود غالى أخيرًا ، ولقد عَملتُ معه عامين في جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، وكان ولا يزال يؤكد بغضه للشعر وأساليب الشعراء في تناول النص المقدس ، ويفضل اعتباره رسالة مقدسة علينا أن نراعى فيها الدقة المطلقة ، وهو ــ كما ذكرت في كتابي نظرية الترجمة الحديثة ــ الوحيد الذي استطاع التمييز في ترجمته الإنجليزية بين معاني الكلمات التي تعتبر من النظائر والأشباه، فأخرج لنا تحفة فريدة .